علم المانيا و حضارتها

رأي للأستاذ الفرنسى : موريس اينوك

منذ الحرب الكبرى ضعف أنصاف الرأى الفرنسى فى علم ألمانيا و حضارتها. وسيظل هذا الرأى غير قابل للتغيير مادامت آثار الحرب موجودة . آثار الحرب الادبية فى القلوب الجريحة وآثارها المادية فى الاراضى المخربة. ومن الممكن أن يمضى وقت طويل على فرنسا قبل أن تنسى ضحايا الحرب . على أنه قد أصبح فى كل ركن من أركانها اليوم رمز لذكرى من ذكرياتها

وكذلك الرأى الالمانى فى علم فرنسا وحضارتها كان غير منصف فى حكمه . وازداد عدم انصافه من بعد الحرب وفى غضونها ولم تعد دولة منهما تعترف للاخرى بفضل فى العلم أو فى الحضارة. وكل ماتفخر به فرنسا يزدريه الالمان و يسخرون منه. وكل ما تعده المانيا ثمرة اختراعها الفكرى ترجعه فرنسا الى أصل فرنسى

قال الاستاذ موريس أينوك : لقد شاعت فى فرنسا حكمة « باستور » القائلة اذا لم يكن للعلم وطن فان للعالم وطنا » وهى تؤكد أن الوطنية حق وفرض على العالم. غير أنها تقضى على العلم أيضا بواجب خدمة الوطن الانسانى فان الطريقة التى يستعملها العالم والمبادىء التى يسترشد بها والأشياء التى يستكشفها والقوانين التى يضعها تصير ملكا مشاعا لجميع الشعوب و بمقدار ما يعمل العالم لمجد بلاده يعمل للانسانية

تلك هى الآراء التى درج الناس على قبولها وتعليمها فى كل المدارس و معاهد العلم فى جميع البلدان المتمدينة. ولكن هناك مع ذلك حالة شاذة وهى أن كل مايعد حقيقة فى هذا الجانب من نهر الرين، يعد خطأ فى الجانب الآخر. ذلك لأن العلم الالمانى يصدر عن روح قومية بصفة جوهرية، وأن غرضه السيطرة، فهو لا يعمل لسعادة لانسانية الحرة . وانما يعمل لفوز العنصرية الجرمانية .

ولما كان غير منزه عن الغرض فهو يعترض العلم الجزيل النفع للجمعيات التى تخدم الحضارة . وفى رأى الاستاذ «اينوك» : ان المانيا تجهل الحضارة ولاتعرف غير

« الكولتور » . وهى ترمز بهذه الكلمة اللاتينية التى شوهها المنطق الجرمانى الى الوطنية الخشنة ومباشرة استعباد العالم للمثل الاعلى الالمانى باستخدام القوة العسكرية والموارد التى خلقها العلم الحديث . والعلم الالمانى هو الخادم المطواع للكولتور .

وفى رأى المؤرخ الجليل « فوستل دى كولانج » الذى لم يتهم قط بالتعصب الوطنى « ان الالمانى يرى الوطن من خلف العلم . . . او على الاقل يتمشى علمه جنبا إلى جنب مع المطامع الوطنية للشعب الالمانى واحتياجاته » . على انه من الممكن حسبان ان المؤرخ لم يسلم من تأثيرا الذكرى الاخيرة لحوادث سنة ١٨٧٠ .

وقد عاد عالم شاب بعد مضى اثنتين وار بعين سنة من معاهدة فرنكفور وقبل عام واحد من حرب سنة ١٩١٤ — الى رأى « فوستل دى كولانج » وبرهن على صدقه تاريخيا فى رسالته لاحراز الدكتوراه فى الآداب . بعنوان « الاصول التصوفية للعلم المانى » . اماذلك العالم الشاب فهو « رينيه لوت » . وقد ختم رأيه بهذه الملاحظة وهي « ان العلم الالمانى يتنافر مع روح العلم . » وقد اصبح الكتاب من بعد نشوب الحرب ذا صبغة حديثة ، وصارت فكرته لاتدهش غير الفرنسيين الكرماء — وهم كثر — ممن يجهلون الروح الالمانى . وهو روح تصوفى .

فبينما يسعى العلم الحديث الذى وضعه « بيكون » و« جاليليو » و« ديكارت » فى توضيح ظاهرات الطبيعة وتقسيمها للتمكن من فهمها كل الفهم واخضاعها للقوانين العددية ، لايرى التصوف ، فى الاشياء غير اتصالها المتبادل وفضائلها الخفية وما بينها من وجوه الارتباط المستترة طبقا لمبدإ الاتصال العام بين الاشياء . الاتصال بين الانسان والعالم ، وبين العالم والله وبين الله والانسان . وينظر بعض المتصوفة الى ذلك الاتصال على اعتبار انه اتحاد تام وذاتيه مطلقة . ان الوثنية لقريبة من الفكر الالمانى

ولقد كان المتصوفة وأصحاب الكيمياء الخرافيه كثيرون فى المانيا اثناء القرون الوسطى ومنذ ذلك الوقت نشأ التقليد الدينى والميتافيزيقى الذى لاينقطع فى المانيا . وضعف هذا التقليد فى القرن السابع عشر وفى النصف الاول من القرن الثامن عشر . وفى ذلك الزمن كانت المانيا خاضعة لتأثير الفكر الفرنسى . وانما بعد « ليبنيز » تلميذ الديكارت .

« غير أن ألمانيا ما لبثت أن احيت الفكر الالمانى ونفت عنها تقليد فرنسا فى طريقة النظر بالعقل ، وعادت الى مذهب الميتافيزيقا دون أن تراعى ترقى علوم الطبيعة

ولبثت أوهام الكيماويين وبيولوجيه «باراسلس» موضوع احترام دون أن تبلغا حد الكفاية

« ولما درست المانيا الفيزيقا الفرنسية والانكليزية بدلتهما بصورتين أخريين نقشت بهما الفكر الجرماني . وكانت ترى أن طريقة النظر بالعقل تفقر الطبيعة، فبقيت طريقتها مجردة من الروح. قال «شيلنج» ـ ان الحقيقة غير متاحة الا بالمطلق »

وتنبأ « نوفاليس » الشاعر الألماني بسيادة الجرمانيسم قال : ان ألمانيا ستعيش وتنفى الحكمة عند ما تسقط أخواتها اللاتى أوتين الحكمة من قبلها وستبقى وحدها سيدة الدار وصاحبة الأمر فيها »

كذلك كان نوفاليس الشاعر الرومانتيكى رسول الجامعة الجرمانية المتطرفة . وقد كانت النهضة الادبية والوطنية فى إلمانيا متفقة مع النهضة السياسية . وفى فجر القرن التاسع عشر كانت الدولة البروسية والعلم الالمانى يعملان جنباً الى جنب

رجلى أن عداء العلماء الالمان الطويل للكيمياء التى وضعها « لافوازييه » لا يخلو من معنى . فقد روى لوت تاريخ ذلك العداء مفصلا

لا يخفى أن نظرية الفلوجستيك كانت سائدة من قبل لافوازيه وهى النظرية التي تنسب الى الكيماويين الالمانيين بيشر وستال . ولقد أطلقت لفظة فلوجستيك على سائل خاص افترض أنه متحد بجميع الاجسام، وأنه يحدث اشتعالا عند فصله . ولم يعزل أى عالم ذلك السائل . وأنما اخترعوه لكى يفسروا الاشتعال . هذا العنصر الغريب بلا ثقل إنه ذو زن سلبى ولقد حل لافوازييه هذا اللغز مستنداً على مبدأ ثبات المادة وأن لاشىء يتلاشى ولا شىء يتجدد

الا أن عقيدة الزوال والخلق الخفيين بقيت متأصلة فى أذهان الألمان وبينما كانت آراء « لافوازييه » مسيطرة على سائر العالم لم يكن فى المانيا من المتشيعين لها غير العدد القليل وكان لا بد لهذه الآراء من انتظار العالم ليبيج لكى تشهد فوزها ولما قدم (ليبيج) باريس كان متشبعاً بافكار (شلنج) الميتافيزيقية فظهرت أفكاره عندما تلقى تعاليم (تينار) و (بيو) و (دولون) و (جيد لوشاك) وكان ذلك الاستاذ الكيماوى الاخير سهل المورد مرحاً كان اذا اهتدى الى اكتشاف أو نجح فى تجربة أخذ بذراع تلميذه وجعل يرقص معه حول طاولة المعمل . ولقد روى لنا « ليبيج » نفسه هذه الظاهرة المراحة . على أنه كتب فيما بعد أن جميع الفرنسيين

مهاذرة لا يستعملون فى كتاباتهم غير صيغة «أنا» التى تنبو عنها نفسه، ولكن اليس من الممكن أن يعترف «العلم الالمانى بأنه مدين لفرنسا»؟

لقد أعطى «لوت» مثلا آخر للقيود الالمانية ضد الافكار العلمية التى ترجع الى اصل فرنسى. وخصت تلك القيود العالم «لا مارك» الذى تجردت افكاره فى توافق المخلوق الحى بوسطه وبما يرثه من الصفات المكتسبة. ومن شأن هذه الافكار ألا تتفق مع الفكرة الالمانية المتشبثة بمبدإ النهائية.

واهم مافى المسألة انما هو اصرار العلماء الالمان المعاصرين على التقليل من شأن مبادىء «لامارك». على أن «هيكل» الذى كان لا يميل الى الاعتقاد بالاسباب الخفية قد وضع «لامارك» فى صف «كانت» و «جوته» بين الذين سبقوا الى مذهب «داروين». وقد بدى له «كانت» فى مقام اسمى من «لامارك» لان التفلسف فى نظر كل ألمانى ينبغى ان تكون له الكفة الراجحة على الفكرة العلمية. حتى انهم رفعوا مقام «ستال» وعنصره «الفلوجستك» على حساب «لافوازييه». وانما تنطوى نظرية «الفلوجستك» على نواة الفكرة الحديثة للطاقة البطيئة. وقد امتدح «اوستوالد» الكيميا الروحية المنسوبة الى «جوته». وقال انه بولغ فى تقدير «لافوازييه» مهذب طريقة النظر بالعقل «راسيونا ليسم» المنسوبة الى «ستال»!

وليس مذهب التصوف مما لا يتفق مع الروح العملى. وقد كان الالمان يأخذون الطرائق التى تأتيهم من الخارج فى الوقت الذى يقللون فيه من شأن المخترعات الفرنسية. ولم يفكر احد فى السخر من النظام الحاضر لمعاملهم العلمية — «لابوراتوار» — التى لم يكمل فيها شىء قدر ما كملت صناعة المفرقعات.

إلا أن مؤرخيهم ونقادهم يحتفظون مع ذلك بعبادة العصر المجيد الذى نشأت فيه — عند مفتتح القرن التاسع عشر — الفكرة الجرمانية. واثبت «ارناك» ان صفة العبقرية التي هى فى الشعب الالمانى كانت تنقص عصر النور وهو عصر فردريك الثانى الذى يعبرون عنه بلفظة «أوفكلارونج».

وما زال العلماء الالمان الى اليوم يبثون فكرة «شلينج» وهى أن من الممكن التحدث عن العلم الالمانى. لان ذلك مسألة متصلة رأساً بالامة الالمانية. هو روح المانيا وزبدتها وصميمها وهو ممتزج بوجودها نفسه

وأثبت « لوت » أن طرائق العلم التجريبى انما أخذها الالمان عن البلدان الاخرى لكى ينسبوها الى أنفسهم حين مكنتهم من ذلك أفكارهم . وجعلوا من بعدها يمجدون العلم الالمانى وفى الدولة الجرمانية .

ومن شأن هذا التجديد للجرمانيسم حسبما يراه الالمان أنه يغير فى نظرنا بعض التغيير من صورة المانيا الشعرية التى استكشفها الرومانتيسم الفرنسى فى كتاب مدام دى ستايل المشهور (« المانيا ») . وقد حكم « لوت » حكما صارما على هذا الكتاب المجرم الذى يشتم منه رائحة العداء لفرنسا . ان مصادرته فى عصر نابليون كان عملا وحشيا أوحاه حكم عادل . فانه فى الوقت الذى انحدفيه الكبرياء الالمانى بالمذهب الحكومى البروسى ، كانت تصورات مدام دى ستايل الخيالية عمياء . وبلاشك كانت عمياء عن اختيار .

وفى بداية الحرب كتب الفيلسوف « أميل بوترو » بعض صفحات قوية عن الجرمانيسم جاءت مؤيدة لنظرية « لوت » .

وفى رسالة مؤرخه فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١٤ الى مدير مجلة « العالمين » صور الفيلسوف الفرنسى الذى ألف من زمن طويل كتب العلماء الالمان ـ صور الروح الجرمانى ومبدأه فى الحرب . وكانت رسالة تحليلية اشتملت على كل المبادىء الالمانية متسلسلة فى نظام طبيعى حى .

وكان « فيخته » فى خطبته المشهورة الى الأمة الألمانية التى ألقاها فى جامعة « برلين » فى شتاء سنة ١٨٠٧ - ١٨٠٧ قد استثار الشعب الألمانى تحت تأثير معركة « يينا » التي انهزمت فيها الجيوش الالمانية . وحضه على أن يشعر بنفسه وبروحه الجرمانى الصافى الذى ينبغى أن يسود العالم . لأن « الالمانى فى الخارج نظير الخير للشر » . وقد أيد التاريخ رأى « فيخته » فان فوز الشعب دليل رفعته . ومنذ هزيمة الرومانى « فاروس » أمام جيش البطل الجرمانى « هرمان » (ارمينيوس) فى غابة « توتوبورج » فى العام التاسع بعد التاريخ المسيحى ، اختار الله الشعب الالمانى وتخلى عن « اللاتين » وسلالتهم .

منذ ذلك الوقت اتحد الضمير الجرمانى بالشعور . وصار كل ما هو جرمانى فريداً صادقاً حقاً ولا بد من فوزه . أما المثل الأعلى الاغريقى اللاتينى ، فلم يبق فى نظر الالمان سوى ضعف وعجز ، وان الشعب الالمانى هو الشعب الوحيد صاحب

« الكولتور » الكامل والقوة المطلقة فى الحق الالهى . وان هذا الشعب المختار يجب أن يضم الذى يملك العلم الحقيقى ويجب أن يحوز مع الحد الأقصى من العلم، الحد الأقصى من القوة !

ولقد صدق الناقد الفرنسى « لاهارب » حين قال : ان الكولتور الالمانى انما هو بربرية مبنية على العلم . »

* * *

هذه بعض فقرات من رأى الأستاذ موريس اينوك الذى تولى تلخيص كتاب العالم « لوت » . وهو رأى اسمعنا أياه المفكرون الفرنسيون كثيرا أثناء الحرب الكبرى ومن بعد الهدنة . وما يزال يتكرر كلما قام النزاع فى نسبة احدى الطرائق أو المستكشفات العلمية

ونقول إن التاريخ يثبت أن الفرنسيين سبقوا الالمان الى كثير من الاكتشافات فى الكيمياء والطب وفى علوم الطبيعة . اما الطريقة التجريبية التى ترقت فى فرنسا منذ القرن الثامن عشر فانها فى الأصل اذا كان لابد من الرجوع الى أصلها الأول ، عربية اهتدى اليها العلم العربى فيما اهتدى اليه من الطرائق .

ومهما حاول الألمان أن يقللوا من شأن العلم الفرنسى فى سبيل رفع شأن الكولتور الجرمانى أو المثل الأعلى الجرمانى، فان التاريخ لا يؤيد آراءهم ولسنا نريد أن نحط من قدر العلم الألمانى الذى عظم شأنه فى العهد الأخير .

ويشهد بعض العلماء الالمان أنفسهم أن العصر الذهبى ، عصر فردريك الكبير، كان مجردا من الخلق ومن العبقرية، كما كان لا يزال من وجهة التفكير خاضعاً للفكر الفرنسى . ولم يتحرر حقاً وينفى عن التقليد إلا فى مفتتح القرن التاسع عشر .

أما الروح التصوفى الذى أشار اليه العالم « لوت » فى كتابه فانه شائع فى شعوب الشمال . شائع فى آدابهم وفى علومهم . حتى أن العلم الانكليزى نفسه وهو أقرب إلى الروح العملى من سواه، لا يكاد يخلو أحيانا من التصوف .

وفضل العلم الفرنسى بل العلم اللاتينى بوجه عام أنه استطاع أن يتحرر من روح العصور الوسطى . ونعود الى تقرير حقيقة أثبتها التاريخ وهى أن كل المخترعات

الفكريه الحرة صدرت من الشعوب اللاتينية وعلى الأخص فرنسا .

ونذكر أننا قرأنا منذ سنوات بحثا لأحد المفكرين الألمان ونقلته الصحف الفرنسية دون تعليق وقد سخر فيه بكل ما تفخر به فرنسا فى تاريخها المجيد . غير أن المفكر الالمانى قد نسى شيئاً آخر وهو أن ألمانيا لا تستطيع أن تذكر الى جانب ما يستحق السخرية فى نظرها من امجاد فرنسا، ما يفوقه من امجادها التاريخية . أن العلم الالمانى فى الواقع مدين لفرنسا فى شىء كثير .

وليس من شأننا الدفاع عن الثقافة الفرنسية التى يدين لها الكثير من المفكرين فى كل أنحاء العالم . انما نقول أن أية مقارنة بسيطة بين الثقافتين الالمانية والفرنسية تظهر الفارق العظيم بين ما يستحق الفخر حقا وما هو أهل للسخر

قال المسيو رينو فى كتابه « التاريخ العام للتأثير الفرنسى فى المانيا » أن هذه الدولة الاخير كانت فيما مضى معبودة الأدباء الفرنسيين . ونسب اليها « جان جاك أمبير » كل وجوه الترقى فى الحضارة الفرنسية . ونصح فيكتور هيجو فرنسا أن « تتحد » بها . وقال المؤرخ « ميشيليه » لتلاميذ مدرسة المعلمين سنة ١٨٣١ « ليست المانيا شيئاً آخر سوى سذاجة وشعر وميتا فيزيقا » .

وكتب « أرنست رنان » : انى عندما درست المانيا ظننت نفسى فى هيكل للعبادة.

غير أن الحرب السبعينية اضعفت من احترام الفرنسيين للفكر الالمانى . فان البروسيانية وطرائقها قد نبهت إلى ضرورة اظهار الحقائق عن العلم الالمانى . ذلك العلم الذى كونته طريقة التقليد والمحاكاة حتى أصبح علما المانيا . وحتى « هردر » و « ليسينج » قد أيدا أن روح التقليد هى الطابع البارز للخلق الالمانى . وبقيت المانيا الى ما بعد نهضتها الوطنية تقتبس من الفرنسيين المبادىء والافكار والمبتدعات وطرائق الادارة والصيغ الأدبية والفنية . وكل ما للفكر الالمانى من فضل أنه وسع فيما ابتدعته الامم الاخرى .

الاسكندرية

عبد الحميد سالم